تقرير عن الندوة التى عقدتها الأسيسكو عن

القدس وتراثها الثقافى

بقلم الدكتور / عزالدين إسماعيل أحمد (*)

لقد أقدمت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة على إقامة ندوة عالمية حول القدس وتراثها الثقافى إنطلاقا من الأهمية التاريخية لهذه المدينة ، ولتقديس المؤمنين من كل الأديان السماوية لها .

ولقد تجمع فى القدس الشريف أجل ما يعتز به المسلمون والمسيحيون واليهود من أماكن مقدسة وتراث وحضارة وتاريخ ، وبذلك فكل ما تضمه أو ترمز إليه يدعو إلى الإخاء ، ويحث على الوئام بين الديانات المنحدرة من ملة سيدنا إبراهيم الخليل ، ويوجب التعايش بين المقيمين امتدادا لما كانت عليه القدس فى عهودها السالفة .

إن من قيم الإسلام الأساسية مناهضة التعصب الدينى ، والتحلى بالتسامح ، والدعوة إلى التعايش بين الثقافات والحضارات القائمة على إرساء مبادئ الفضيلة والساعية إلى إسعاد البشرية دنيا وآخرة ، وهذا ما دعت إليه الديانات السماوية الثلاث ، المطلوب منها التعايش داخل القدس الشريف .

وقد أرسى قواعد هذا التعايش فى السنة السابعة للهجرة الخليفة الثانى عمر ابن الخطاب الذى فتح القدس ، وأعطى عهداً بصيانة مقدساتها ، والتزم للعرب بالحفاظ على طابعها العربى ، ووضع النصارى الذين وجدهم بها فى ذمة الإسلام ورعايته ، وسلم لهم بذلك نصاً مكتوباً بنص الأمان أو العهدة العمرية .

وتشخيصا منه لروح الحفاظ على قدسية كل مكان مقدس لمعتنقى الديانات السماوية ، أبى وقد حضرت الصلاة أن يقيمها فى كنيسة القيامة فأم المؤمنين على مقربة منها قائلاً « لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون بعدى بالصلاة فيها .. » ثم بنى مسجدا للمسلمين على الصخرة التى كلم الله فيها يعقوب عليه السلام .

(*) مدير عام بالهيئة العامة للكتاب .

إن ارتباط القدس بتاريخ الإسلام والمسلمين واحتواءها لتراث إسلامى أصيل كان ولا يزال تعلق المسلمين بالقدس الشريف التى بها أسرى الله بعبده محمد عليه صلوات الله وسلامه ، ومن مسجدها الأقصى كان عروجه إلى السماء ، وفى القدس يقوم المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله وعظمه ، وإلى القدس كان المسلمون فى بداية البعثة المحمدية يتوجهون بالصلاة قبل أن يحول الله القبلة إلى المسجد الحرام بمكة المكرمة ، وجاء فى الحديث الشريف « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث : مسجدى هذا أى الحرم المدنى ، والمسجد الحرام أى الحرم المكى ، والمسجد الأقصى » .

وهكذا قامت عبادة المسلمين على الحج والزيارة لبيت الله الحرام ، وزيارة المسجد النبوى ، والصلاة فى بيت المقدس .. وكان المسلمون قبل وفودهم على مكة والمدينة للقيام بالحج والعمرة يقدمون التقديس تطبيقاً للحديث الشريف القائل « من أهل بحج أو عمرة من المسجد الأقصى غفر الله ما تقدم من ذنبه » وكانت هذه عبادة أكثر المغاربة ، والمغاربة الذين استوطن عدد كبير منهم القدس وأقام بها بالأخص الحى الذى يحمل اسم حى المغاربة، وما أكثر ما ساهم به المغاربة من أموال رصدها لصيانة المآثر التاريخية بالقدس ، وما أكثر ما كتبوا عن القدس وأحوالها .

إن بوادر الوفاق تلوح فى أفق فلسطين أن تصبح القدس من جديد مركز إشعاع للقيم التى نادى بها الرسل والأنبياء من عالى شرفاتها وليعم السلام الأفئدة والضمائر ، وتتحرر العقول من جمودها وتعصبها ، ويستجيب المؤمنون الموحدون للنداء السماوى الخالد .

والكتاب الذى يضم أعمال الندوة مقسم إلى مقدمة تضم كلمات الرسالة التى وجهها العاهل المغربى الملك الحسن الثانى إلى العالم بخصوص القدس ، ثم كلمة معالى وزير التربية والوطنية المغربى ، ثم كلمة وزير الأوقاف والشئون الإسلامية فى حكومة المغرب ، كلمة منظمة المؤتمر الإسلامى ، وكذلك كلمة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، ثم كلمة مندوب اللجنة الدولية للحفاظ على التراث الحضارى الإسلامى ، ثم كلمة منظمة العواصم والمدن الإسلامية .

ثم قسم الكتاب إلى محاور ، تناول المحور الأول القدس عبر العصور التاريخية فما من مصدر من المصادر التاريخية يدعى أن سيدنا داود هو مؤسس مدينة القدس ، إن العهد القديم يقص علينا بالتفصيل كيف اقتحم جنود داود المدينة عند النفق المشهور .. والقصة معروفة ولا حاجة لتكرارها هنا ، والحقيقة أن سيدنا داود لم يؤسس القدس وإنما احتل مدينة آهلة بالسكان كما نصت عليه التوراة ، وأن هذا الاحتلال تم سنة ١٠٠٠ ق . م وعندما دخلها سيدنا داود كان عمر المدينة ألفى سنة وسكانها الأصليون لم يكونوا بالقطع من اليهود ، بل كانوا كنعانيين وعموريين ويوسعين وحيثيين ومن أجناس أخرى ، كانوا أقواماً لهم ثقافاتهم ولغاتهم وفنونهم ومعارفهم فى الزراعة والتجارة والصناعة .

ومن الجدير بالذكر أن أقدم أسماء المدن « أورسالم » وهو اسم عمورى سالم أو شالم عمورى وهو اسم إله كنعانى عمورى ، بينما أورو تعنى أسس أو أنشأ ، فيكون معنى اسم المدينة أسسها سالم ، أما أقدم أسرة حاكمين من حكام المدينة وهما « يازعنو » و « ياقرعمو » ويذكر عالم الآثار الأمريكى « أولبرايت » أن هذين الاسمين عموريان .

إن العموريين كما جاء فى التوراة هم السكان الأصليون لأرض كنعان ، وكانت لغتهم هى اللغة الكنعانية ، وكانوا هم والكنعانيون من نفس الأرومة السامية ، ويعتقد كثير من المؤرخين أن العموريين هم فرع من الكنعانيين الذين جاءوا فى الأصل من جزيرة العرب .

وفى الألف الثانى قبل الميلاد كان سكان القدس هم اليوسيون وهم الذين بنوا مع الكنعانيين قلعة صهيون فى المدينة ، وكلمة صهيون كلمة كنعانية تعنى مرتفع .

أما اسم مدينة القدس الثانى فهو « ايبوس » وكانت ثقافة ايبوس وثقافة الكنعانيين الذين أسسوا على أرض كنعان عدة مدن ذات ثقافة أفصحت عن نفسها بالمبانى الجيدة البناء ، وكذلك فى النشاط الصناعى والتجارى ، وفى الحروف الهجائية وفى الديانات ، وكلها ازدهرت على مدى ألفى سنة أخذ عنها العبرانيون .

وكما قالت التوراة كانت مدينة غريبة « حيث ليس أحد من بنى إسرائيل هنا » فكيف تتصور وتقرر إسرائيل أن القدس مدينة إسرائيلية .

وبعد الاحتلال الأول للقدس لم تصبح المدينة يهودية خالصة ، وبقى اليبوسيون فى المدينة فلم يستطع الإسرائيليون طردهم ، ويشير سفر العصاة إلى وضع كان يعيش فيه بنو إسرائيل اليبوسيين جنبا إلى جنب فى المدينة .

ويقول دى لاس أولبرى إن معظم الفلاحين الفلسطينيين الحاليين هم أنسال تلك الأقوام التى سبقت الإسرائيليين .

ويؤكد العالم الانثروبولجى البريطانى الشهير سير جيمس فرازر « أن فلاحى فلسطين الناطقين بالعربية هم سلالة القبائل التى استقرت فى البلاد قبل الغزو الإسرائيلى الأول ، وهم ما يزالون متمسكين بالأرض إنهم لم يغادروها ولم يقتلعوا منها .

ويقول العالم الأمريكى « سير شارلز ما ثوز » لابد أن نقول كلمة حول أصول الأجناس التى سكنت هذه الأرض ، الحقيقة بسيطة وهى أن الشعب العربى فى فلسطين فى أكثريته ليس من أحفاد أولئك القادمين الجدد الذين دخلوا البلاد مع الفتح الإسلامى العربى فى القرن السابع ، إن أكثرية الفلسطينيين من سكان البلاد الأصليين سواء المسلمون منهم أو المسيحيون هم جنس مختلط ترجع صلته بالبلاد إلى فجر التاريخ . وهناك اتجاه فى التاريخ نحو تبسيط الأمور عن طريق تصور أن جميع المسلمين فى الأراضى المتفتحة جاءوا من الخارج وتسلموا زمام الأمور وأن لديهم مفهوم بالنسبة لأكثرية المسلمين أن يعتقدوا أن أجدادهم هم من الأمة الفاتحة .

وبطبيعة الحال أن أعدادا كبيرة من العرب الحقيقيين القادمين من جزيرة العرب استقرت فى الممتلكات الجديدة أو هناك فى التواريخ الضخمة والتواريخ المحلية شواهد عن إقامة مستوطنات استقر بها القادمون الجدد .. بيد أن الفاتحين والمستوطنين الذين جاءوا فى أعقاب النجاحات العسكرية والسيطرة السياسية .. لم يكونوا يشكلون إلا أقلية ضئيلة إذا ما قورنوا بجماهير السكان الذين استعمروا البلاد منذ عهد سحيق فى القدم وظلوا فيها ، وكانوا بهذه الصفة سكانها التاريخيين .

إن صفة عرب قبلتها تدريجياً أكثرية السكان كما قبلت الدين الجديد وأصبحت اللغة العربية لغة الجميع ، وكان يعتبر الدين فى معظم الحالات أمرا اختياريا ، وكان

للرغبة فى التقدم وتحسين الوضع وتفادى الضرائب المفروضة على غير المسلمين ، كما كان لبساطة الدين الجديد يد فى هذا التحول إلى الدين الجديد فإن عرب فلسطين هم سكان البلاد التاريخيون ، وقد كان البلاد بلادهم على الدوام .

غير أن فلسطين ما تزال وستبقى الأرض المقدسة بالنسبة للأديان الثلاثة ، وكل مجموعة من المجموعات الثلاث هى بحاجة إلى الإسهام الزمنى على الآخرين أن يقوموه من أجل مصلحة البلاد أو توصل الخير المشترك والمتبادل إذا أحجمت كل مجموعة من المجموعات عن الطمع فيما لا حق لها فيه ، ومن أجل التوصل إلى هذا الهدف فإن شعب فلسطين كله فى حاجة إلى التعاطف الواعى والتفهم من جانب مئات الملايين من أتباع الديانات العالمية الكبرى التى تقدس أرض فلسطين .

وفيما يتعلق بسكان القدس عبر العصور ، لابد من التأكيد أنه منذ القرن السابع الميلادى ، وحتى القرن التاسع عشر ، عاش اليهود بالقدس أقلية ضئيلة وقد اختفوا عمليا بعد حرب سنة ٧٠ ، ١٣٥ بعد الميلاد ، وقد جدد الأباطرة البيزنطيين الحظر الذى فرضته روما على إقامة اليهود فى القدس ومنعوهم من سكنها .. وهذا الحظر لم يرفع إلا بعد مجئ العرب فى القرن السابع الميلادى ، ولكنه عاد ففرض من جديد عندما احتل الصليبيون القدس لمدة ٨٨ عاما .

وفى الخمسة آلاف سنة التى مرت من عمر القدس عاش اليهود فى المدينة ١٣٥ عاما كأكثرية محتملة ، وفى هذه السنوات حكموا المدينة بالفعل (أى زمن المملكة الموحدة والمملكة المقسمة) حوالى سنة فقط ، وهذا يعنى أن وجودهم كعنصر من عناصر السكان فى القدس لم يستمر أكثر من ٢٢ ٪ من جملة حياة المدينة ، وهو حوالى واحد إلى خمسة من الخمسة آلاف سنة التى كانت القدس فيها آهلة بالسكان . وقد حكموا القدس لفترة لا تزيد عن ١٢ ٪ من عمرها .

ومع مجيء الإسلام سمح لليهود أن يعيشوا كجالية مستقلة ، وإن تك صغيرة فى القوى ، وتتبارى الإحصائيات حول عدد اليهود الذين عاشوا فى القدس خلال العهود الإسلامية ، فهم لم يتجاوزوا فيما بين القرن السابع الميلادى والقرن التاسع عشر عن خمسمائة أو ستمائة شخص من مجموع سكان المدينة التى تتراوح من ٢٠-٤٠ ألفا أى

أنهم كانوا يشكلون حوالى ٢ ٪ من سكان القدس لا غير ، فى سنة ١٨٥٠م شكل اليهود أقل من ٤٪ من سكان فلسطين التى قارب عددها ٣٢٥ ألفا ، وأن الزيادة المصطنعة التى بدأت ١٨٨٢ عندما أخذت موجات المهاجرين اليهود تتدفق على القدس وفلسطين من أوربا الشرقية .

ومن الثابت أنه فى كل فترة كانت القدس تخضع لحكم المسيحيين وسلطتهم لم يكن يسمح لليهود بالإقامة أو السكن فيها ، ومن وجد منهم أثناء حكم المسيحيين لها كان إما أن يقتل أو يطرد ، فى حين أنه حين كان المسلمون يحتلون القدس كان اليهود يستدعون إلى المدينة ويسمح لهم بالعيش فيها ، فعاشوا فيها فى سلام .

ويمضى كتاب الندوة ليعرض لنا أقوال وكتابات المزيد من المؤرخين والكتاب الغربيين واليهود ليستشهدوا بأقوالهم على حقيقة عروبة مدينة القدس ، وفى هذا التأكيد يقول الكاتب البريطانى « كولن ثيرون » فى كتاب عن القدس ما يلى :

« ... فى القرون المبكرة كان المسلمون على العموم متسامحين مع اليهود وعاشوا معهم بسلام فى الوقت الذى كانت فيه أوربا منقسمة انقساما كاملاً فى الاضطهاد .

ويقول سليمان بن بروهام أن المسلمين سمحوا لليهود بالدخول إلى الأماكن الإسلامية المقدسة ، وفى أثناء حكم صلاح الدين الأيوبى استمر التسامح الإسلامى ، ومن المعروف أن الصليبيين عندما احتلوا القدس جمعوا اليهود فيها وأحرقوهم فى كنيستهم ، وبدءاً من ١٠٩٩ إلى ١١٨٧ لم يكن يسمح لليهود بالعيش فى المدينة ، وعندما استرد المسلمون بيت المقدس سمح لليهود بالعودة ، وقد أعلن صلاح الدين بعد فتحه المدينة أنه سوف يستقبل ويقبل شعب أفرايم بأسره من أى مكان جاءوا ، وهكذا جئن من جميع أطراف الأرض ليسكن هنا اليهود المضطهدين ، فجاءوا إليها ينشدون الأمن ويجدون العدل . وفى الوقت الذى كان اليهود يهربون فيه من أسبانيا ويلجأون إلى البلاد العربية وغيرها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فتحت الدولة العثمانية لهم أبوابها وأعطتهم حق اللجوء ، ومن المعروف أن المصرفى اليهودى اللاجئ من البرتغال عين مستشار للسلطان سليمان الذى أحاطه بصنوف التكريم وفى فلسطين ازدادت الجالية اليهودية الصغيرة بسبب المهاجرين الذين فروا من محاكم التفتيش الأسبانية، وتم إيواءهم فى القدس وصفر .

إن التسامح الذى وصفناه يعد الفضل فيه فى الدرجة الأولى إلى روح الإسلام وموقفه من أهل الكتاب وكذلك إلى تعظيم الإسلام لمدينة القدس ، ولقد مجد الإسلام الأنبياء ورسالاتهم وأحلها مكانة عالية من الاحترام ، بل إن الدين الإسلامى اعتبر رسالته استمراراً وتنمية للرسالتين السماويتين وجعل القدس مناطا للتقديس لأنها مدينة الرسل والأنبياء ، وأن تعلق المسلمين بالقدس شديداً بحيث جعلت الصلاة فيها بخمسمائة صلاة فى غيرها ، والمسجد الأقصى أحد المساجد الثلاثة التى تشد إليها الرحال للصلاة والتبرك .

وهناك اعتقاد بأنه فى يوم الحشر تجمع الخلائق كلها فى القدس ، ولهذا طلب كثير من المسلمين أن يدفنوا فى القدس ، وقد وضع علماء المسلمين حوالى سبعين كتابا فى فضائل بيت المقدس ، ونظرا لهذا التعظيم للقدس فقد صانها المسلمون وجنبوها ويلات الحروب والدمار ، وقد افتتحوها غير مرة سلما وتحاشوا إراقة الدماء فى كل مرة .

وبمجيء القرن العشرين تغير كل شيء ، فالعلاقات الطيبة بين العرب واليهود أصبحت الآن من تراث الماضى ، وخصوصاً عندما بات واضحا للجميع أن إسرائيل جاءت بدعم شامل من الغرب لتغزو المدينة وتطرد سكانها وتغير هوية القدس وفلسطين كلها تغييرا شاملا . إن وعد بلفور والانتداب البريطانى وجشع الصهيونية لم تدع مجالا للسلام، بل شملت الأرض المقدسة بأجواء الكراهية والحروب ، وفى مساء اليوم الثامن من يونية أى بعد احتلال اليهود للقدس القديمة تم نسف حارة المغاربة المجاورة للحرم الشريف وتسويتها بالأرض وقد أمر حوالى ١٠٠٠ من سكانها بمغادرة بيوتهم خلال ساعتين ، ثم هدمت البيوت وعددها ١٣٥ بيتا .

ومنذ ذلك الوقت إتخذت السلطات الإسرائيلية سلسلة طويلة من الإجراءات ضد القدس وسكانها . والإدارة الوطنية فيها ، ومن تجاهل تام للقانون الدولى ومقررات الأمم المتحدة ، وهى إجراءات ، تهدف إلى محو الوجود العربى وتهويد القدس بصفة عامة ، ولكن الإمعان فى تجاهل الحقوق العربية وحذف القرارات الدولية لا يسد المنافذ إلى السلام فحسب بل يهدد الشرق الأوسط كله بالوقوع فى فرض مواجهات لا نهاية لها ، وحتى هذه الأيام التى تبذل فيها محاولات لإعادة السلام إلى الأرض المقدسة يكون من الأهمية

القصوى أن نذكر أن القدس هى لب المشكلة كلها ، ومفتاح السلام الحقيقى ، وأى محاولة لتجاهلها ولحل مشكلتها ستكون عقبة مدمرة فى وجه أى حل .

إن أى حل يكتب له البقاء لقضية القدس يجب أن يقوم على عدد من المبادئ التى لا غنى عنها ، فقبل كل شيء لا يجوز لشعب أو جنس أن يسيطر على مقدرات شعب آخر، ولا يجوز أن يسمح لدين باغتصاب حقوق دين آخر ، كما يجب أن يمنح سكان القدس العربية الحق فى تقرير المصير كما يجب أن تتمتع الأماكن المقدسة بالاحترام التام والعناية، وأن تكون حرية الوصول إليها مكفولة ، كما أن إعلان حقوق الإنسان والقرارات الدولية يجب أن تطبق أيضاً فى القدس ، لقد أثبتت تجربة خمسة أعوام أن كل من جاء إلى القدس بقوة السلاح يسعى لتثبيت أقدامه فيها ، سرعان ما تتحول هذه الرغبة إلى وجود مؤقت ، وتبقى القدس كما هى مدينة كل الأديان .

وفى نفس المحور يتناول المرجع القدس الكنعانية من زاوية الجغرافيا السياسية وهذا البحث بقلم د / ناجى علوش ، كما تناول المرجع القدس فى ضمير المغاربة خلال عصور التاريخ المختلفة وذلك من خلال بحث مقدم من د / أبو بكر القادرى ، والموضوع الرابع هو عروبة القدس عبر العصور التاريخية بقلم د / نظام العباسى ، كذلك كان الموضوع الخامس هو القدس عبر العصور التاريخية بقلم د / محمد رأفت النابلسى . وكان التسامح الدينى فى ظل الإدارة الإسلامية للقدس هو محور الموضوع السادس بقلم د / محمد صابر عرب ، كذلك تميز هذا المحور بثراء المادة المكتوبة بها ، فضم صورا من تعايش المسلمين وأهل الذمة فى ظل الحكم العربى الإسلامى ورعاية المسلمين لحقوق بيت المقدس بقلم د/ بشير إبراهيم بشير ، كما ضم هذا المحور عدة بحوث لأساتذة أجانب من جامعات أوربا والولايات المتحدة .